

نحو هوية وطنية  
جمعية اللواء الأبيض ومهضة القومية في السودان ١٩١٩ - ١٩٢٤  
أستاذة إلينا فيزيديني  
قسم التاريخ - جامعة بولونيا - إيطاليا<sup>١</sup>

كثيراً ما تقترن جذور الوطنية السودانية الحديثة بثورة ١٩٢٤ وجمعية اللواء الأبيض تلك الجمعية السياسية التي أذكت المقاومة ضد الاستعمار. برزت جمعية اللواء الأبيض بمضامين مختلفة كلياً قياساً بحركات المقاومة السابقة لها إبان الحكم الثنائي كحركات المقاومة الدينية في الشمال والغرب والمقاومة القبلية في الجنوب وجبال النوبة<sup>٢</sup>، أولاً : كانت الحركة تطالب بحقوق الأمة وكانت أول من يستخدم الأيديولوجيا والعبارة القومية . ثانياً : كانت للحركة القدرة على استيعاب الطبقات الوليدة من موظفي الحكومة والضباط الإداريين والعمال ، ووجهت دعوتها من المراكز المدنية إلى مجتمع كان يمر بعملية (التنبيت القبلي) التي بدأت في زمن الدولة المهديّة وازداد ظهورها بفضل سياسات الإدارة الاستعمارية . ثالثاً : كانت أيديولوجيا اللواء الأبيض وتكوينها الاجتماعي شاملين وطاغيين على الانتماءات الاجتماعية

<sup>١</sup> أعدت دراستها للماجستير عن الرق وتجارة الرقيق في فترة الحكم التركي المصري. وتعد حالياً رسالتها للدكتوراه بجامعة بيرغن بالنرويج عن الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لأعضاء جمعية اللواء الأبيض وقيام أول حركة وطنية في السودان.

<sup>٢</sup> Alexander Solon Cudsi, *Sudanese resistance to British Rule 1900-1920*, M. Sc. Thesis, University of Khartoum 1969.

والعرقية حيث أن الجمعية قد تكونت بواسطة شباب من اصول قبلية وطبقية مختلفة ، شباب قرر أن يتجاهل المقام الاجتماعي المرتبط بالقبيلة والعرق, لذلك شكلت الجمعية تهديداً لنظام الطبقات الاجتماعية والتميز العرقي الذي كان يبنه المستعمر . لم تعتمد الجمعية في اختيار قادتها على زعماء العشائر والطوائف الدينية بل كان قادتها من الشعب أمثال علي عبد اللطيف وكان اختيارهم يقوم على مقدار وطنيتهم لا على أحسانهم وأنسابهم .

وصفت جمعية اللواء الأبيض في كثير من الأحيان على أنها نقطة تحول في تاريخ فترة الاستعمار<sup>1</sup> بيد أن قدر كبير من الدراسات والأبحاث حول الوطنية السودانية نزعته إلى تحليل ثورة ١٩٢٤ على أنها تمثل نقطة البداية الضرورية لتسليط الضوء على مصادر ظواهر أخرى ارتبطت بها كسياسات الجنوب وجيل النوبة والحكم اللا مركزي ومشكلة التزمت السياسي وغير ذلك<sup>٢</sup> .. لكن قلما ركزت تلك الدراسات على اللواء الأبيض نفسها واعتبرتها مرحلة جنينية لمؤتمر الخريجين أواخر الثلاثينات. وقد اعتمدت كثير من تلك الدراسات على التقارير البريطانية كتقريي إيوارت و ويلس

<sup>١</sup> من المصادر الثانوية الأخرى لجمعية اللواء الأبيض: يوشيكو كورينا، علي عبد اللطيف وثورة ١٩٢٤م: بحث في مصادر الثورة السودانية، مركز الدراسات السودانية، القاهرة ١٩٩٧.

Jaafar Muhammad Ali Bakheit, *British Administration and Sudanese Nationalism*, PhD Thesis, Univ. of Cambridge, 1965 Hasan Abdin, *Early Sudanese Nationalism: 1919-1925*, Sudanese Library Series 14, Khartoum, Khartoum University Press, 1985  
<sup>٢</sup> أنظر على سبيل المثال: Afaf M. O. Beshir, *Revolution and Nationalism in the Sudan*, op.cit., Afaf Abdel Majid Abu Hasabu, *Factional Conflict in the Sudanese nationalist Movements 1918-1948*, Khartoum: Graduate College Publications No.12, University of Khartoum, 1985;

كمصادر رئيسة لدراسة جمعية اللواء الأبيض الأمر الذي ساهم قطعاً في تعميم التاريخ الخاص بتلك الحقبة<sup>1</sup>.

إلا أنه وكما أشارت بعض الدراسات التي أجريت مؤخراً لا بد من دراسة جمعية اللواء الأبيض من منظور آخر .

نستطيع إدراك مدى تأثير اللواء الأبيض إذا نظرنا إلى حقيقة أن الإرهاق الذي سببته للحكومة استوجب إعادة النظر في النظم الإدارية وإقامة الإدارة الأهلية الهشة .علينا أن نتبه أيضاً إلى أن الكم الهائل من المصادر الأولية مأخوذة من قرابة ٢٠٠٠ من وثائق المخابرات البريطانية بينما في الإمكان جمع المزيد من المواد من المخطوطات والمقالات الصحفية والأعمال الأدبية والصور والروايات الشفاهية الخاصة بجمعية اللواء الأبيض<sup>٢</sup> . لم تستغل هذه المصادر إلا جزئياً في كتابة تاريخ الوطنية السودانية باستثناء بعض الكتاب الرواد<sup>٣</sup> .

إن قلة اهتمام التاريخ بالجمعية هو نوع من التناقض إذا أخذنا في الاعتبار الدور الذي لعبته الجمعية وما كان يمكن أن تسلطه من ضوء على قوى التغيير الاجتماعي والعلاقات الطبقية والتحويلات الاقتصادية وإعادة صياغة المفاهيم الخاصة

---

<sup>1</sup> Both are in: J. M. Ewart, 'Report on Political Agitation in the Sudan,' 21.4.25, PRO FO 407/201

<sup>2</sup> كما أورد حسن عابدين في: *Index for Primary and Secondary Sources on the 1924 revolution*, IAAS ، من المصادر المهمة أيضاً لجمعية اللواء الأبيض: الروايات الشفاهية لثوار ١٩٢٤، مركز الدراسات الآسيوية والأفريقية، جامعة الخرطوم، أبريل ١٩٧٤

<sup>3</sup> أنظر: Y. Kurita, *Ali Abd al-Latif wa thawra 1924*, op. cit. and Jafaar Bakheit, *British Administration and Sudanese Nationalism*, op. cit.

بتاريخ المجتمع السوداني والمأخوذة غالباً عن تاريخه الحديث كالعلاقة بين النسب والحالة الاجتماعية .

سنكتفي في هذا المقال بتحليل المادة الدعائية لجمعية اللواء الأبيض كالتريقات التي أرسلت إلى الحكومة البريطانية والصحافة العالمية والسلطات العليا في مصر ، والتي حفظ غالبيتها في دار الوثائق البريطانية. بما أن عملية بناء الدولة تقتضي انتشار القيم والرموز التي تمثل الأمة في شكلها الجمعي فإن هذه المصادر تمثل أفضل جهود جمعية اللواء الأبيض لتوصيل وتعليم المبادئ الوطنية . أخيراً، تمثل تقارير المخابرات في دار الوثائق بالخرطوم وبعض المقابلات الأساس الإحصائي للبيانات الخاصة بالتكوين الاجتماعي لجمعية اللواء الأبيض .

سنقوم أولاً بتحليل السياق التاريخي العالمي وعلاقته مع نهوض الوطنية السودانية وهو أمر لا بد منه للتعرف على الأفكار العالمية الجديدة . ثانياً سنقوم بدراسة الخلفية الاجتماعية لأعضاء اللواء الأبيض وعلاقتها بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي بدأها المستعمر ، ثالثاً سنقوم بتناول الأيديولوجيا والعبارات الوطنية التي استخدمتها جمعية اللواء الأبيض، أخيراً سنقوم بدراسة التحالف السياسي بين الإدارة البريطانية وأعيان السودان من زعماء العشائر والطوائف الدينية لمواجهة خطر اللواء الأبيض .

السياق العالمي لثورة ١٩٢٤ ، عهد الدولة - الأمة :

مثلت الحركات الوطنية الناهضة ضد الاحتلال في جميع أرجاء الإمبراطورية البريطانية تهديداً كبيراً للإدارة البريطانية وظهر شبح الوطنية في السودان بفضل الثورة والاستقلال في مصر .

كان للثورة المصرية تأثير داوي على الصعيد العالمي إذ أنها كانت أول دولة شرق أوسطية تنال استقلالها رسمياً في القرن العشرين بعد ثماني سنوات من الحماية البريطانية و٤٠ عام من الاحتلال<sup>١</sup>. نجح حزب الوفد المصري بأن يكون مثلاً للدول الأخرى الطامحة للاستقلال بما فيها السودان<sup>٢</sup>.

كان وضع السودان كمستعمرة للإنجليز والمصريين معاً أمراً في غاية الأهمية فقد ظهرت مشكلة تأثير استقلال مصر على وضع السودان وبقى السؤال بلا إجابة وأصبح أحد النقاط المتحفظ عليها في الإعلان الأحادي الجانب للاستقلال عام ١٩٢٢ وظل معلقاً حتى مقتل السير لي ستاك في نوفمبر ١٩٢٤ .

إن مناقشات ما بعد الحرب عن إعادة ترسيم الحدود الدولية ومناقشة أسباب الحرب العظمى وأثر مبادئ ويلسون الـ١٤ وتعزيز مفهوم الدولة - الأمة فتحت كلها الطريق أمام تحولات في القانون الدولي والممارسة السياسية . وأصبحت مجموعة من

<sup>١</sup> أدت تعقيدات الوضع المصري فترة ما قبل الحماية وتأثير المصالح الدولية والجهاز الإداري الذي بقى مصرياً وأخيراً النجاح الجماهيري للوطنية المصرية، أدت كلها إلى تقليص الحكم البريطاني على البلاد. أنظر، P. J. Vatikiotis, *The History of Egypt*, London : Weidenfeld and Nicolson, 1969, pp. 169-177.  
<sup>٢</sup> 'Memorandum on the Political Situation in North Africa,' by F.R. Rodd, Foreign Office, 21.6.24, in *Confidential Papers, Part XCV, Jan-June 1924*, FO 407/198, pp. 371-76.

المبادئ مثل حماية الأقليات وتقرير مصير الشعوب والتفريق بين مفهومي الدولة والأمة هي المرتكزات الأساسية لعصبة الأمم . إضافة إلى ذلك الضغوط التي قام بها الرأي العام الاوروي من أجل الإصلاحات في سياسة الاحتلال , وقد ساهمت أيضاً وكالات الأنباء العالمية مثل رويترز<sup>1</sup> . وأصبحت المطالب الوطنية بالاستقلال أمراً مشروعاً ، غير أن هذه الدول لم تكن متحضرة بما يكفي لمنحها حق تقرير المصير وأنها سوف تعمل على تدمير نفسها طالما أنها لم ترق إلى مستوى التطور المطلوب لمجابهة قوانين الاقتصاد الحديث القاسية<sup>2</sup> .

لذا سعت القوى الاستعمارية إلى تبديل صورتها من محتل إلى وصي وهو مصطلح كثير الذكر في المراسلات البريطانية الخاصة بالسودان . من الواضح أن العرب قد أفادوا من إعادة صياغة نظرية الاحتلال فقد صنفت الدول العربية في مؤتمر باريس على أنها من دول المرتبة الأولى وأنها تستطيع التعبير عن نفسها ولكنها تحتاج فقط إلى مساعدة في الحكم<sup>3</sup> .

في السودان بدأ الإنجليز في تطبيق هذه التغييرات وفي تقديم أنفسهم على أنهم مجرد أوصياء مؤقتون وكانوا في ذات الوقت يطلبون ولأول مرة مساندة ما أوجدهه بأنفسهم "الرأي العام السوداني" .

في السودان على وجه الخصوص كان الإنجليز أكثر احتياجاً لمظاهر الولاء من قبل الشخصيات السودانية الأكثر نفوذاً وذلك بسبب المنافسة المصرية؛ لأن أي من

<sup>1</sup> M.D. Callahan, *Mandates and Empire, The League of Nations and Africa 1914-1931*, Brighton, Portland : Sussex Academic Press, 1999, pp. 1-4.

<sup>2</sup> F. Lugard, *The Dual Mandate in British Tropical Africa*, London, 1922, p. 18.

<sup>3</sup> Callahan, *Mandates and Empires, op. cit.*, p. 31.

الدولتين لم تكن لتخاطر بترك السودان للأخرى فقد كان للسودان دور حيوي للمصالح الاقتصادية والجيوسياسية للبلدين . لذلك بدأت المصالح المتعارضة لمصر وبريطانيا في السودان تأخذ شكل المعركة من أجل كسب الرأي العام السوداني طالما أن حق البقاء في السودان وفقاً لمبدأ تقرير المصير لا يمكن أن يمنحه إلا الشعب السوداني . دخلت مصر سباق كسب العواطف السودانية متميزة على بريطانيا إذ لم يكن بين السودان وبريطانيا أي نوع من الروابط بينما تجمع السودان ومصر علاقات دينية وثقافية وتاريخية طويلة الأمد . أدت الدعاية المصرية دوراً مهماً في خلق رأي عام جديد مضاد وخطاب مغاير للخطاب البريطاني .

أيقظ كل ذلك لدى السودانيين الوعي بأن رأيهم صارت له إمكانية التأثير في الحقل السياسي بما أنه وللمرة الأولى أصبح لدى حكامهم من الإنجليز والمصريين الرغبة في الاستماع إلى صوتهم .

#### استجابة الشعب السوداني :

استجاب السودانيون للدوافع السياسية المتعددة بالتفافهم حول مركزين يمكن اختزالهما في الشعارين "وحدة وادي النيل" و"السودان للسودانيين". تبني الموالون لبريطانيا شعار السودان للسودانيين وهو يرمي إلى جعل السودان دولة بعيداً عن مصر . لقي هذا الاتجاه ترحيباً من زعماء العشائر والطوائف منهم السيد عبد الرحمن المهدي ،

الذي كان يعزز في ذلك الوقت قيادته بين أنصار المهدي. والسيد علي الميرغني زعيم الطريقة الختمية . بالنسبة للإنجليز فقد كان هؤلاء الأعيان يمثلون اختيار الشعب<sup>1</sup>.  
وقف جزء من السودانيين إلى جانب الأعيان "رغم أن بعض الأعيان لم يشاركوا في دعم الإنجليز" وكونوا بذلك قدراً ضئيلاً من الرأي العام السوداني والذي لم يكن منظماً في جماعات أو اتحادات سياسية . تشكلت هذه الجماعة ولحد كبير من موظفي الدرجات العليا "المسؤولين" كقاضي الخرطوم ومفتش التعليم المعروف بابكر بسدي و قد انضمت الأجيال القديمة بشكل عام إلى هذا التيار بما أنهم عايشوا الفترة الأولى للحكم المصري وصاروا لا يأمنون الإدارة المصرية<sup>2</sup>.  
غير أن الإجماع حول هذا التيار لم يكن إجماعاً تاماً لكل الآراء . في الواقع أحدثت الثورة المصرية أزمة سياسية وأخلاقية للحكم الثنائي فقد عبرت عن آراء أولئك الذين كانوا يطهرون قيماً بديلة وسعوا للتعبير عنها في الساحة السياسية كما سيتضح في الفقرة التالية.

أمسا الشق الآخر من الرأي العام السوداني من أنصار وحدة وادي النيل فقد كانوا ناشطين سياسياً في عدد من المنظمات والجمعيات . ظهرت الجمعيات السياسية السرية

---

<sup>1</sup> Major General Sir Lee Stack to Field-Marshal Viscount Allenby, Erkwit, 25.5.24 'Memorandum on the Future Status of the Sudan,' PRO, FO 407/198, pp. 336-46.

<sup>2</sup> Skrine to More, Telegram, 10.9.24, PRO, FO 141/805/2



في السودان قبل ١٩١٩ إلا أن الثورة المصرية تسببت في ظهور المزيد من هذه الجمعيات<sup>١</sup>.

يكنون الصراع السياسي في أغلب الأحوال ترجمة للصراعات الاقتصادية والاجتماعية وتلقي تبعات هذا الصراع الضوء على التوترات المتعلقة بالتوزيع الاجتماعي للقوة. دار الجدل الداخلي في السودان حول الوضع السياسي المستقبلي بعيداً عن كونه مجرد صراع لأتباع مصر أو بريطانيا. ابان هذا الجدل التوترات والتغيرات التي طرأت على الشعب السوداني في تجربته مع الاستعمار . بالنسبة للإنجليز كان همهم الأساسي هو التحكم في تغيير وصياغة المجتمع وفقاً لأولوياتهم السياسية و"الترتيب الطبيعي للسلم الاجتماعي"<sup>٢</sup> . إلا أن مجهوداتهم لمعالجة مسألة التوزيع الاجتماعي للسلطة كانت مناقضة لمسار السلطة الاستعمارية فقد شكلت التغيرات الاقتصادية والتوظيف التدريجي للطبقة المتعلمة تحدياً للنظام الاجتماعي القائم على النسب ونسب الدم الذي سعى الإنجليز إلى بلورته وهو ذات التناقض الذي كون الأساس للتوترات الاجتماعية التي تمت صياغتها لاحقاً في أحداث ١٩٢٤ من خلال مفاهيم الوطنية وحقوق الأمة .

---

<sup>١</sup> مثلاً، كان عمي موسى أحد ثوار ١٩٢٤ وعضواً في أحد التنظيمات في كردفان وهو تنظيم المضباط تم تكوينه عام ١٩١٦ بمحاكمة غزو دارفور. ولما كان هؤلاء المضباط مسلمين لم يقبلوا محاربة المملكة الإسلامية لصالح المسيحيين. من مقابلة مع محمود زهوي Hassan , Abdin, 28.5.1974, IAAS 1163

<sup>٢</sup> About a sociology of race, see for example, Chris Samje, *Natural Hierarchies, The Historical Sociology of Race and Caste*, Blackwell, Oxford, 2000

## ٢- معنى "التنبيت القبلي": Detribalization:

١-٢ التنبيت القبلي ومسميات الاستعمار :

يمثل تقرير التصعيد السياسي في السودان وثيقة مهمة تعرف أيضاً بتقرير إيوارت ولقد طبع هذا التقرير عام ١٩٢٥م في سلسلة الأوراق البيضاء. أبان هذا التقرير كيف أن مسؤولية أحداث ١٩٢٤ تعود أصلاً إلى اشتغال الدعاية المصرية على فئتين مهمتين: "الطبقة المحرومة من حقوقها" وضباط الجيش<sup>١</sup>. ولقد تم تفسير الاستياء الذي عم أوساط الضباط على أنه نتيجة لكونهم جزء من الجيش المصري وأن ولائهم للملك المصري وليس للبريطاني. أما طبقة المحرومين من حقوقهم فهي طبقة خاصة بالسودان تتكون من السودانيين ذوي الأصول المختلطة من الذين ولدوا في مصر ونشأوا في السودان والزواج أبناء العبيد أو العبيد المحررين والذين تنتمي غالبيتهم إلى سلالات مختلطة. جميع هذه العناصر تخرج عن دائرة السيطرة الطبيعية والانتماء للمشاعر القبلية او القومية<sup>٢</sup>. لذا فقد استخدم مصطلح المنبتين قبلياً لوصف ثلاث مجموعات: أولاً: ما يعرف بالـ"السودانيين" أو الزنوج المنبتين قبلياً كما هو مذكور في المصادر البريطانية ويرمي هذا المصطلح إلى تأكيد أصولهم الإفريقية أو بعبارة أخرى قدومهم من أطراف السودان بسبب الهجرة التي غالباً ما تعزى إلى استعباد الأيوين والأجداد. ثانياً: المولدين وهم من آباء مصريين وأمهات سودانيات لذلك فإن لهم أصول مصرية أو

<sup>١</sup> Ewart's Report, PRO FO 407/201, pp. 154-55; Y. Kurita, 'The Role of the "Negroid" but Detribalized" People in the Sudanese Society 1920s-1940s,' in *Second International Sudan Studies, Conference Papers, Volume 3: Sudan, Environment and People*, 8-11 April 1991, Durham: University of Durham, 1992, pp.107-121.

<sup>٢</sup> Ewart's Report, PRO FO 407/201, p. 154-5.

مصرية - تركية ويأتون من مختلف أجزاء الإمبراطورية العثمانية . ثالثاً : السودانيون الذين فقدوا صلاتهم القبلية لأسباب كثيرة مثل التزاوج والاستقرار .

لا بد لنا وقيل كل شيء أن نحقق في هذه التقسيمات ونشكك في مدلولاتها. حينما حدد الإنجليز هذه التقسيمات بعد تحليلهم للعناصر المحرومة من حقوقها يتضح لنا مدى اجتهادهم في إدراك وقراءة الحدود الفاصلة بين المجموعات إلا أنه من الخطأ تسمية هذه المجموعات الثلاث بالـ "محرومة من حقوقها" لأن كياناً بعينه ، يقل أو ينعدم عنده الارتباط بالأصول القبلية ، كان لا بد أن يقوم ويلتف حول بلاده الأم ، فالجليلين الثاني والثالث للدينكا والنوبة مثلاً لم يكونوا يتحدثون لغتهم الأم وكانوا مسلمين<sup>1</sup> . رغم كل هذا وكما تشير الروايات الشفاهية وبرقيات جمعية اللواء الأبيض لم يكن أي من الأعضاء جاهل بأصله العرقي سواء كان من المراكز أو الأطراف<sup>2</sup> .

لذلك فقد ظلت حدود المجموعة ومسمياتها بعيدة كل البعد عن عقلية التقسيم البريطانية . كل ما في الأمر أن الإدارة البريطانية كانت غير قادرة على رؤية انسياب العلاقات بين المجموعات كما أوضحت دراسات فترة ما بعد الاستعمار<sup>3</sup> . القبيلة كيان

<sup>1</sup> Ewart's report, PRO FO 407/201, p. 154.

<sup>2</sup> من مقابلة مع أخفاد علي عبد اللطيف وثابت عبد الرحيم "لبن أخ ثابت عبد الرحيم الذي تم إعدامه بواسطة الإنجليز لاشتراكه في معركة 11/27 وهو ما تأكده الوثائق أيضاً. تشير بعض المصادر إلى أن علي عبد اللطيف عمر في أواخر مدة سجنه عن رغبته في العودة والعيش في جبل ليما وقال أنه يمتلك أرضاً في جبل ليما. إذا أختار البقاء في ليما رغم كونه من العناصر المذبذبة قنياً إلا أن أصله من النوبة Civil".

Secretary to Governor of Kordofan, Khartoum, 3.4.34, NRO Kordofan 1/13/60

<sup>3</sup> For an important article on the reconsideration of the discourse on ethnicity in the Sudan, see Jay O'Brien, 'Toward a Reconstitution of Ethnicity: Capitalist Expansion and Cultural Dynamics in Sudan' in *Golden Ages, Dark Ages, Imagining The Past in Anthropology and History*, ed. by J. O'Brien and W. Roseberry, Univ. of California Press, Berkeley, Los Angeles, Oxford, 1991.

لا يمكن للتاريخ أن يحده ، ولكل قبيلة مجموعة راسخة من المميزات التي تعرف وتصنف بها . ولقد كانت التصنيفات القبلية تحدد هي الأخرى عن طريق الاستراتيجيات السياسية . مثل عملية منح السلطات للأحلاف المختارة على أساس تميز النسب وتفوق القبيلة .

وكما يتضح من وثائق الاحتلال فلقد سعى الإنجليز إلى تقسيم السودانين إلى قسمين رئيسيين يمثلان مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور البشري<sup>1</sup> ينجح العرب في المقدمة كغزاة نبلاء وشرفاء لكنهم سذج وضعفاء ويتم تحديدهم بواسطة مجموعة من مميزات الشرقيين كما وصفها E. W. Said . وفي المرتبة الثانية يأتي الأفارقة "طفل أعراق العالم" الذي يكشف جميع مراحل نشأة مجتمع الإنسان<sup>2</sup> .

يتضح من تقرير إيوارت أن عقدة العرق والشعور بالدونية والتهميش من جانب المولدين والزنوج المنتبئين قبلياً أمام العرب تعتبر المسببات الرئيسية لتمردهم وعصيانهم ولكن ، وكما سيتضح في الفقرات التالية تعارض هذا التفسير حقائق واضحة منها أن الناشطين السياسيين قد تجاوزوا الحدود القبلية والاجتماعية والوظيفية وعملوا متحدّين من أجل حرية بلادهم .

أود أن أضيف هنا ووفقاً لنتائج هذا البحث أنه وفي تلك الفترة لم يكن الانتماء لمجموعة غير العرب يعني في ذات الوقت التهميش الاجتماعي أو العوز أو استحالة الحصول على

H. A. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan*, London, frank Cass, 1967, <sup>1</sup> vol. 1, p. 195

E. W. Said, *Orientalism*, Penguin Books, London, 1995, 1st ed. by Routledge, 1978 <sup>2</sup>

Lugard, *The Dual Mandate*, *op. cit.*, p. 72; the question is fully treated in the 4<sup>th</sup> <sup>3</sup> chapter, 'The people of British Tropical Africa.'

مناصب إدارية كما يتبين من سيرة حياة العديد من أعضاء جمعية اللواء الأبيض التي كان قائدها علي عبد اللطيف من أصل متواضع وسليل أرقاء<sup>1</sup>. بلا شك كان ، وما يزال ، كون المرء ينتمي لأسر مسترقة مرتبطاً بدلالات ازدرائية كانهطاط المستوى الأخلاقي مثلاً ، بيد أن السلالة ليست سوى أحد العناصر التي تحدد المسار الاجتماعي للفرد والتي ربما تكون مجرد واجهة اجتماعية لا دخل لها بالمقدرات البشرية الأخرى .

إن السلالة والنسب لا يقيمان جداراً فاصلاً عن المعاملات الاجتماعية والنجاح في مجال العمل فالضباط وموظفو الحكومة مثلاً كانوا يأتون من كل مكان في السودان بما فيهم "السودانيين" والمولدين الذين كانوا في الغالب أقباط . يشير تقرير إيوارت نفسه للاندماج الاقتصادي - الاجتماعي الذي تم بين "السودانيين" . وأن هذه الطبقة استفادت من فرص التعليم التي أتاحت منذ الاحتلال الإنجليزي وأن لها وجود قوي في أوساط الموظفين والجيش والأهالي بالإضافة إلى الحياة التجارية<sup>2</sup> .

تعتبر التعددية الاجتماعية من الأنماط المعروفة في كل من تاريخ السودان والشرق الأوسط . في حالة السودان يمكننا القول أن الإطار النظري للرق ومفهوم العبودية قد نشأ من نكران إنسانية الآخر غير المسلم مقتدين في ذلك بالنموذج

<sup>1</sup> أنظر الروايات الشفاهية لثوار ١٩٢٤ ، مرجع سابق، رغم أن كلاً من علي عبد النظيف وزير العابدين عبد التام وحسن فضل المولى وعبد الفضيل الماط على سبيل المثال كانوا يعرفون بالعناصر غير العربية المنبئة قليلاً لكنهم كانوا من الضباط أصحاب الرتب الكبيرة.

<sup>2</sup> Ewart's Report, 21.4.25, FO 407/201, p. 155.

المعروف في العديد من المجتمعات الاستعبادية<sup>1</sup>. غير أن الإطار النظري يبقى فقط على العبودية ولكن لا يخلقها. في السودان مثلاً كان الرق استثماراً مربحاً ومرتباً بتجارة العاج التي اشتركت فيها الشركات الأجنبية "أغلبها أوروبية" مثلها مثل الشركات السودانية<sup>2</sup>.

حتماً، يكشف مفهوم السودانيين المبنيين قبلياً عملية التغيير الاقتصادي والاجتماعي التي مر بها السودان خلال فترة الاستعمار.

## ٢-٢ الاقتصاد - الاستعمار و"التنبيت القبلي"

قام الاحتلال البريطاني بتغييرات اقتصادية كبيرة في السودان خلال العشرين سنة الأولى من الحكم الثنائي وازداد حجم التجارة بشكل ملحوظ<sup>3</sup>. ويعزى هذا النمو إلى التطورات الكبيرة التي مرت بها وسائل الاتصالات كبناء السكة حديد ودورها في البحر الأحمر بعد إنشاء ميناء بورتسودان. وافتتاح العديد من المشاريع الزراعية التي فتحت الباب واسعاً أمام فرص العمل.

---

<sup>1</sup> انظر مثلاً: C. Meillassoux, *Anthropologie de l'esclavage: le ventre de fer et d'argent*, Paris, PUF, 1986; F. Cooper, *Plantation Slavery on the East Coast of Africa*, Yale Univ. Press, New Haven and London, 1977; ووعن العلاقة بين الرق والفكر الإسلامي أنظر: E. Vezzadini, *La Schiavitù e la tratta degli schiavi in Sudan sotto il dominio Turco-Egiziano, 1820-1882*, MA Thesis, University of Bologna, 2001; see among others: Gray R., *A History of the Southern Sudan*, op. cit.; E. Vezzadini, *La Schiavitù e la tratta degli schiavi in Sudan sotto il dominio Turco-Egiziano, 1820-1882*, MA Thesis, University of Bologna, 2001.

<sup>2</sup> Sources: Annual Report for 1905, FO 407/165; Annual Report for 1919, FO 407/186.

<sup>3</sup> Complete statistics can be draw from the Annual Reports (FO 407 series) and are summarized by Daly, *Empire on the Nile : the Anglo-Egyptian Sudan 1898-1934*, Cambridge : Cambridge University Press, 1986; see Table I, Sudan Government Revenue and Expenditures, page. 457.

إلا أن هذه التنمية كانت محدودة بسبب مشكلة نقص العمالة التي كانت مصدر قلق للحكومة منذ البداية لما قد يترتب عليها من آثار اقتصادية عكسية . فقد أحدثت هذه المشكلة فجوة أدت إلى الازدياد المستمر في رواتب كل من العمال والمهنيين على حد سواء كما حدث في إقليمى البحر الأحمر والنيل الأزرق<sup>١</sup> . وبعد زيادة الرواتب صارت الشركات الخاصة والعامة تتنافس على التدفق غير المنتظم لمجموعات العمال<sup>٢</sup> . ولما ازدادت المنصرفات بارتفاع دخل الفرد أصبح الحراك الاجتماعي الملحوظ واحداً من الملامح المهمة للعشرين سنة الأولى من الحكم الثنائي .

أيضاً ساعد التوسع الاقتصادي على الزيادة الرأسية في معدل المدينة خصوصاً في مراكز النمو الاقتصادي كالمدين الثلاثة عطبرة والأبيض وبورتسودان والخرطوم<sup>٣</sup> . ولقد ساهم استقرار السكان الذي ارتبط بالفرص الاقتصادية في جعل المدينة مكاناً للإنتتاح والتداخل الاجتماعي<sup>٤</sup> . وفقاً لتقرير التعداد السنوي لعام ١٩٠٤ استقبال السودان<sup>١</sup> أسراباً من الأوروبيين والإثيوبيين والمصريين والهنود والجنسيات الأخرى<sup>٢</sup> .

---

<sup>1</sup> B. Burnett, Director of Works, Sudan Government in reply to Draft Question re. The supply of unskilled labour, Khartoum, 10.2.21, NRO, Intel 4/1/7, and Sikainga, *Slaves into Workers, Emancipation and Labour in Colonial Sudan*, Univ. of Texas Press, Austin 1996..

<sup>2</sup> إلي جانب المنافسة بين القطاعين الخاص والعام كانت هناك منافسة أكثر حدة بين مؤسسات القطاع الخاص. ومن أجل دعم القطاع الزراعي قامت الحكومة بمنح تعيين العمال في بعض المناطق كالأقليم الجنوبي، حيث دافعت الشركة عن استيعاب القوى العاملة في المناطق المحرمة. أنظر، Sudan Costruction Company to Inspector of Irrigation, Blue Nile Division, 28.9.21, NRO, Intel 4/2/10

<sup>3</sup> El-Sayed El Bushra, 'Some demographic indicators for Khartoum Conurbation, Sudan,' in *Middle Eastern Studies*, Vol. 15, No.3, October 1979, London: Frank Cass, pp. 295-309.

<sup>4</sup> أنظر مثلاً: عطبرة كما ذكر "" : A.Sikainga, *a Social History of Atbara Sudan's Railways Town 1906-1984*, Heinemann, Currey, David Philip, Portsmouth, Oxford, Cape Town, p. 33

كثرت المهجرات الموسمية للبحث عن العمل خصوصاً لدى ما يسمى بالقبائل العربية "الرحل" مثل الهدندوة والبقارة وقد ينتهي الحال ببعض المهاجرين بالاستقرار في المدن<sup>١</sup>. انسجمت كل هذه المجموعات من الناس وعملوا معاً في المشاريع الزراعية والوظائف<sup>٢</sup> "أخيراً ، ساهم كل من التعليم والعمل الإداري في خلق بيئة ذات تداخل ثقافي ، ففي المكاتب الحكومية مثلاً كان الإنجليز والمصريين والسوريين والسودانيين من مختلف أجزاء السودان يجتمعون في بيئة واحدة<sup>٣</sup>. وكان الواجب يملئ على الضباط الانتقال إلى الجنوب مثلاً ثم دارفور أو البحر الأحمر وساد في ذلك الوقت اعتقاد بأن الإداري الجيد لا بد أن يتعرف على جميع البيئات .

شكل أبناء الخرطوم على وجه العموم غالبية الطلاب في المدارس وحصلوا على فرص أكبر في التعليم وذلك لارتباط آبائهم بالإدارة الاستعمارية<sup>٤</sup>. مع ذلك كانت مدارس الحكومة مثل كلية غردون التذكارية مفتوحة أمام الجميع بغض النظر عن العرق

---

<sup>1</sup> Annual report 1904, FO 633/74, p. 145

<sup>2</sup> Annual Report 1905, FO 407/165 p. 195

<sup>3</sup> Report of the Labour Bureau 1909, NRO, Intel 4/3/15

<sup>4</sup> Report of the Labour Bureau, 1911, NRO, Intel 4/3/15

<sup>5</sup> كانت كلمة "سوري" تطلق على السوريين واللبنانيين والأردنيين والفلسطينيين على حد سواء.

<sup>6</sup> للأسف لا تتوفر لدينا معلومات عن ما قبل ١٩٢٧، لكن في ٢٧ ذاتها كان ١٦٩ طالب من أصل ٣٧٠ من إقليم الخرطوم أنظر

Sudan Government Annual Report of the Education Department, 1928, In Beshir O., *Educational Development in the Sudan, 1898-1956*, Oxford : Clarendon Press, 1969, p. 198. وكان أبناء المسئولين أصحاب ثاني أكبر تمثيل في كلية غردون بعد أبناء المزارعين وقد بلغت نسبتهم عام

Annual Report of the Education Department, 1928, : SAD 549/6; %٢٤,٩ مثلاً ١٩٢٨



والدين<sup>١</sup>. وصارت بذلك مكان التقاء لمختلف الجنسيات كالمصريين والأجباش والسوريين والعرب و"السودانيين"<sup>٢</sup> وقد ضمت بعض الفصول في مدارس كمبوني التبشيرية تلاميذ من عشرة أو أكثر من الجنسيات المختلفة<sup>٣</sup>. يتضح الآن تأثير هذه البيئات متعددة الأجناس والأديان على الطلاب والموظفين .

تعرضنا فيما سبق للخلفية الاقتصادية والاجتماعية لأحداث ١٩٢٤ ونستطيع وصف تلك المرحلة بأنها كانت مواتية وقابلة للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية السريعة التي تمت خلالها . انعكس انسياب العلاقات الاجتماعية هذا بجانب انعدام التبلور الطبيعي للطبقات الاجتماعية في المجتمع السوداني إبان فترة العشرينات في تكوين جمعية اللواء الأبيض وهو أمر لا يمكن تجاوزه في تفسير النجاح الذي لعبته الحركة والقاعدة الاجتماعية العريضة التي استندت عليها .

## ٢-٣ الشمولية الاجتماعية لجمعية اللواء الأبيض

تأسست جمعية اللواء الأبيض بداية العام ١٩٢٤ وكانت نقطة لاندماج لسلسلة من المنظومات السياسية الصغيرة ، كانت جمعية الاتحاد السوداني أكثرها بروزاً. وقد بدأت

<sup>١</sup> Annual Report of the Education Department, 1928, SAD 549/6. تنطبق هذه الحالة أيضاً على العام

١٩٢٣ وكان عدد طلاب القسم الثانوي بكلية غردون ٦٦ طالب ٤٨ منهم مسلمين و ١٨ مسيحيين. أنظر Report on Finance

Administration and Condition of the Sudan, 1913, vol. 2, London, 1914 Beside the Annual Report of the Education Department see also the statistics at the

Comboni Missionary School, ACR 169/1 series. Comboni Missionary School, statistic for the year 1923-24: ACR: A/169/1/90,

A/169/1/95.

جمعية اللواء الأبيض نفسها بمجموعة من أعضاء جمعية الاتحاد السوداني ممن أرادوا فتح الصراع مع سلطة الاحتلال<sup>1</sup>.

وفقاً لمسميات البريطانية كان علي عبد اللطيف قائد جمعية اللواء الأبيض لأب من النوبا وأم مسن الدينكا كلاهما من أسر مستترقة وكان يفهم ولا يتحدث لغة النوبا وكان مسلماً غير أن أصوله لم تحول بينه وبين العمل . درس علي عبد اللطيف في المدرسة الحربية وتخرج ملازم ثاني عام ١٩١٤ وأصبح فيما بعد ملازم أول<sup>٢</sup>. كغيره من الضباط الذين تولوا المهام الإدارية كان علي عبد اللطيف كثير التنقل ذهب أولاً إلى تلودي في جبال النوبة ثم الفاشر ودار مساليت في غرب السودان ورمبيك وشامي في الجنوب حيث كان مأموراً ثم نقل إلى ود مدني عام ١٩٢٢ حيث اعتقل لأول مرة بتهمة عدم التعاون مع السلطات . منذ صغره لم يكن علي من الرجال الذي " يأكل وينوم ويلبس ويحوم"<sup>٣</sup> بدأ نشاطه مبكراً وكان كلما نقل إلى بلد باشر فيها نشاطه السياسي . بعد اعتقاله في مايو ١٩٢٢ أرسل علي عبد اللطيف الوثيقة المعروفة بـ "مطالب الأمة" إلى صحيفة حضارة السودان والتي أذان فيها استغلال الإنجليز للموارد القومية ونكراهم لحقوق السودانيين الأساسية كالتعليم والاشتراك في إدارة بلادهم وسجن لذلك عدة

<sup>1</sup> المصدر: درية محمد حسين "حفيظة علي عبد اللطيف".

<sup>2</sup> Y. Kurita, "The Conception of Nationalism in the White Flag League Movement", in Mahasin Abdel Gadir Hag Al Safi ed., *The Nationalist Movement in Sudan*, Sudan Library Series (15) Institute of African and Asian Studies, University of Khartoum, 1989, p. 29.

<sup>3</sup> Hasan Abdin, *Early Sudanese Nationalism*, op. cit.,; Ewart's Report, 21.4.25, PRO FO 407/201, p. 156.

<sup>4</sup> Oral interview to al-Azza Mohammed Abdalla, wife of Ali fiAbd al-Laṭif, taken by Prof. Ahmed Ibrahim Diab

أعوام، وبعد خروجه من السجن تم تسريحه من الجيش كما تم الاحتفاء بالبطل الأسود من جانب الشعب السوداني وبدأ من جديد نشاطه السياسي الذي أفضى إلى تكوين جمعية اللواء الأبيض<sup>1</sup>. كان المتظاهرون يهتفون باسمه "كأنه زغلول السودان".  
إذاً توضح لنا قصة حياة علي عبد اللطيف كيف أن وصمة العار المرتبطة بالسلالة لم تكن من العوامل الفعالة بما يكفي لتعطيل إنجازاته السياسية ومن خلال أعماله الوطنية وضع علي نفسه في مصاف عظماء الوطنيين السودانيين. ينطبق هذا الحال على أعضاء اللواء الأبيض الآخرين فقد كانت العضوية مفتوحة أمام الجميع بغض النظر عن جنسيتهم وطبقاتهم .

يتجسد هذا المفهوم في اللجنة الخماسية المكونة لجمعية اللواء الأبيض فقد ضمت بجانب علي عبد اللطيف أشخاص آخرين منبئين عرقياً كصالح عبد القادر وحسن صالح فقد كانا من المولدين ذوي الأصول المصرية عمل الأول صحفي ووكيل سفري في مصلحة البريد وعمل الثاني أيضاً في ذات المصلحة . أما حسن شريف فقد كان من الموظفين المصريين ولد في أسوان وعمل في مكتب بريد الخرطوم أما عبيد حاج الأمين فقد أكمل تعليمه عام ١٩٢٠ وعمل لمدة عامين في مصلحة البريد والبرق وهو من أسرة معروفة من قبيلة المحس وكان أخوه محمد حاج الأمين أحد الذين رافقوا الوفد السوداني الذي سافر إلى لندن عام ١٩١٩ لتهنئة الملك<sup>٢</sup>.

<sup>1</sup> 'Note By Mr R. E. H. Baily, M.B.E., On The Origin And History Of The White Flag League', in *Confidential Papers. Further Correspondence, Vol. XCVIII, July-December 1925*, p. 177, PRO, FO 407/201.

<sup>2</sup> 25.6.19, PRO, FO 141/582/3; الرقية أرسلتها المخابرات من الخرطوم إلى المندوب السامي في القاهرة كما ذكر أحمد إبراهيم دياب في مقابلة مع المؤلفة.

كان جميع أعضاء اللجنة في العشرين أو أقل من عمرهم وكان متوسط أعمارهم ٢٣,٦ وفقاً للمعلومات الموجودة في المصادر التي قلما توجد بها جميع البيانات<sup>١</sup>. استطاع الإنجليز أن يلاحظوا اشتراك الموظفين في الجمعية بسبب وضعهم الوظيفي ولقد انتشرت عضوية اللواء الأبيض في جميع المصالح خصوصاً البريد والبرق والسكة حديد والوابورات ، وانتشرت أيضاً في مصالح أخرى مثل القضاء والمالية والسجون والري والمراكز البيطرية والجمارك والخدمة العامة والأشغال العسكرية . جذبت الجمعية أيضاً الكثيرين من الجيش والطبقة العاملة والتجار والحرفيين كما يوضح المثال التالي : تكونت قيادة مظاهرة ٢٦ يونيو ١٩٢٤ من "نجار - مولد ٢٨ سنة" و"إسكافي - هاشمي ٢٥ سنة" و"ترزي - مولد ٢٠ سنة" و"نجار - شايقي ٢٤ سنة"<sup>٢</sup> وتم في هذه المظاهرة التي خرجت في اليوم التالي اعتقال ضابطين وترزي بتهمة قيادة المظاهرة<sup>٣</sup> . وقد ضمت أحد قوائم العضوية الجديدة سبعة أعضاء بينهم ترزيان وحزار وثلاثة أفندية "موظفين" . باستخدامنا لعينة من ١٤٣ ناشط سياسي في الخرطوم "وهم ليسوا بالضرورة منتمين لجمعية اللواء الأبيض لكنهم اعتقلوا أو ذكروا على الأقل في الوثائق البريطانية بسبب نشاطاتهم الثورية" بوسعنا عمل الإحصائية التالية :

المهنة	النسبة	العدد
--------	--------	-------

<sup>1</sup> Note on the signatories of the telegram of 15.5.24, PRO, FO 141/806/1

<sup>2</sup> هذه المعلومات مأخوذة من قاعدة بيانات "لم تكتمل بعد" تضم أسماء جميع الناشطين السياسيين الذين اشتركوا في الثورة. جمعت عالمة المعلومات من الوثائق البريطانية في "ن ر و" و"ب رو" والمقابلات التي أجريت في السبعينات ومقابلات أخرى أجرتها كاتبة المقال.

<sup>3</sup> Chronicle of events during the period of political excitement in Khartoum, June to August 1924, n. d., not signed, PRO, FO 141/805/2

<sup>4</sup> , 27.6.24, PRO, FO 141/806/1 , برقية من مدير المخابرات إلى وكيل حكومة السودان

٣٤	%٢٣,٧	إداريين / موظفي حكومة
٢٧	%١٨,٩	ضباط
٤	%٢,٨	موظفي القطاع الخاص
٢٠	%١٤	حرفيين ومهنيين
٣	%٢,١	تجار
٣٣	%٢٣,١	طلاب
٤	%٢,٨	أخرى
١٨	%١٢,٦	غير محددة
١٤٣	%١٠٠	المجموع

لا يفوتنا أن موظفي الحكومة والضباط ورد ذكرهم بشيء من الإسهاب في المصادر البريطانية خاصة في الخرطوم لأنهم كانوا نواة الجمعية . والشيء نفسه ينطبق على الطلاب فقد ذكرت جميع أسماء الطلاب الحريين الذين اشتركوا في مظاهرة المدرسة الحربية في ١٩٢٤/٨/٩<sup>١</sup> .

نجد أن عدد الناشطين السياسيين أكبر من عدد أعضاء جمعية اللواء الأبيض والسبب في ذلك أن الجمعية لم تكن ترمي إلى توسيع قاعدة عضويتها ولكنها ظلت منظومة صغيرة تهدف أساساً إلى حفز الاستياء ضد الاستعمار وتوعية المجتمع بشرور الإنجليز . وقد

<sup>١</sup> عدد الطلبة الحريين الذين اشتركوا في مظاهرات ١٩٢٤ هو ٥١ طالباً ولكننا أشرنا هنا فقط إلى أولئك الذين تم اعتقالهم...

نجحت المظاهرات مثلاً في تعبئة مئات المواطنين في الخرطوم<sup>١</sup>، لكن أعداد قليلة منهم وهم قادة المظاهرة في الغالب كانوا من أعضاء الجمعية المعروفين رغم أن الكثيرين منهم كانوا ناشطين سياسياً وهم علائق قوية مع الجمعية لكنهم ظلوا خارج عضوية الجمعية ومثال ذلك الطلبة الحريين<sup>٢</sup>.

ضمت الجمعية أيضاً أعضاء من الأسر المعروفة مثل محمد المهدي ابن الخليفة عبد الله وشيخ ود عمر وهو من أسرة من كبار التجار بأمدردمان وعلي البنا وهو من عائلة البنا المعروفة منذ المهدي وعلي المرضي عمدة الخرطوم وقد لاقى هؤلاء الشباب معارضة شديدة من أسرهم كما حدث لعبيد حاج الأمين . أما مزمل علي دينار "ابن آخر سلاطين الفور" ومحمد المهدي الخليفة فقد كان نضالهما انتقاماً للنخزي الذي أصاب أسرهم بفعل الغزو الإنجليزي .

وفيما يختص بالانتماءات القبلية للنشطاء السياسيين سواء كانوا أعضاء للجمعية أو غير ذلك يتضح مما تقدم التجانس الاجتماعي الذي ساد بينهم على اختلاف أصولهم واعراقهم فقد انصهر عدد كبير من القبائل داخل الجمعية كالرفاعيين والحس والشايقية والعبابدة والحسانية والبشاريين وإلى جانب الدينكا والفور وآخرين بالكاد صنفهم الإنجليز "سودانيين" بل كانوا يقيسونهم بالمصريين لإظهار أصولهم المرتبطة بالرق .

<sup>١</sup> اعتبرت مظاهرات يوليو نقطة تحول كبيرة فقد تجمع حوالي ٣٠٠ - ٤٠٠ شخص في ساحة الترام. لكن وفقاً لشهادة العازة قد تكون مظاهرة الطلبة الحريين في ٩ / ٨ / ٢٤ أكبر من ذلك بكثير  
Telgram from Khartoum to High Commissioner for Egypt, Sequence of Events, 4/7/24, PRO, FO 141/806/1  
<sup>٢</sup> *op. cit.*, p. 44 الروايات الشفوية لتوار ١٩٢٤

وكان بينهم أيضاً مصريين وبعض السوريين واليمنيين<sup>1</sup>. علينا توحي الحذر في تحليلنا لمثل هذا النوع من المعلومات لأن استخدام دلالات هذه المسميات في المصادر البريطانية مشكوك فيه إضافة إلى أن الوثائق دائماً ما تكون متناقضة وغير دقيقة. والدليل على ذلك أننا لن نستطيع الجزم بأن العناصر الزنجية شكلت غالبية أعضاء اللواء الأبيض الناشطين سياسياً رغم أنهم لعبوا دوراً رئيسياً في تنظيم النشاط الثوري كما فعل علي عبد اللطيف وحسن فضل المولى وزين العابدين عبد التام. إلا أن هذا لا يعني أن منطلقات النشاط السياسي كانت عرقية.

أخيراً، إن المناطق التي اندلعت فيها اضطرابات 1924 تبين لنا مدى الانتشار الجغرافي لنضال الجمعية وهي الخرطوم وعطبرة وبورتسودان والدامر ووادي حلفا وبربر وأبو حمد وود مدني وشندي والحصاحيصا وتلودي والدلنج والأبيض وبارا وأم روابة والنهود وملكال وواو والرنك وشامي وكوستي والفاشر. رغم تمركز الحركة في المدن لكنها لاقت نجاحاً في العديد من المناطق الريفية كما هو الحال في إقليمي بربر وكردفان<sup>2</sup>.

إن عدم تدوين التاريخ السياسي والاجتماعي لفترة العشرين سنة الأولى من الحكم الثنائي أدى إلى إخفاء ملامح آثار الاحتلال وما سببه من تغيير في المجتمع السوداني. إلا

<sup>1</sup> Intel Information, 25.6.24, NRO, Palace 4/10/49 ملاحظاً مثلاً محمد توفيق وهي القاضي وهو مصري عايش المراحل الأولى للجمعية ولعب دوراً هاماً في اتصالات الجمعية بالقاهرة هناك أمثلة أخرى مصريين لم يتقلدوا مناصب حكومية كبيرة وليس بمقدورنا معرفة ما إذا كانوا منتمين حقاً إلى الجمعية أم أنهم قد دفعوا إلى ذلك. لكن بشكل عام كان الكثير من المصريين في السودان من النجار والضباط والمستولين ناشطين سياسياً.

<sup>2</sup> مصادر عديدة أوردت هذه الظاهرة انظر مثلاً فيما يتعلق بمحاولة استقطاب قادة كردفان Intelligence Department Information, 2.9.24, PRO, Palace 4/9/44

أن السبب في وحدة هذه المجموعات المتباينة كان عدوهم المشترك "الاحتلال البريطاني" .

إن ما فعلته جمعية اللواء الأبيض لم يكن فقط توحيد وتنسيق الاستياء لكنها قدمت المجال الأوسع والإطار النظري الجديد لذات النضال القديم ضد الإنجليز الذي كان قائماً طوال فترة الاحتلال ومنذ الثورة المهديّة.

### ٣- إعادة بناء الهوية الوطنية .

سنكون محظين إذا نسبنا ميلاد الهوية الوطنية لثورة ١٩٢٤ لأن الثورة المهديّة هي التي بدأت عملية بلورة السودان كدولة - أمة وساهمت بقوة في بناء وحدة الشعب السوداني من خلال صراعها لبناء الدولة الإسلامية الطاهرة والأصيلة وإقصاء الأتراك. إن فكرة وحدة الأمة المهديّة وهي أحد الدعائم للأساس النظري للدولة المهديّة قد تحققت بالفعل حيث كان جيش المهدي ودولته عبارة عن قوس قزح لمجموعات من كل أنحاء السودان<sup>١</sup>. كما يتبين مما يلي حاولت جمعية اللواء الأبيض تفعيل الآلية ذاتها والتأكيد على وحدة أفراد الشعب ، لكن في ذات الوقت كان الإطار الأيديولوجي للجمعية مختلفاً وكانت العبارات والوسائل جديدة كلياً لأن المثال المنشود هذه المرة كان بناء الوطنية السودانية .

١-٣ السوداني

---

Interview with fiAbd al-Rahman al-Tayeb, grandson of the Emir Yaqub, 11.12.2004; <sup>١</sup> Holt, P. M., *The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898*, Oxford : Clarendon Press, 1958



كانت الخطوة الأولى أمام الشباب السوداني الوطني هي تذكير أبناء بلادهم بمعنى كون المرء "سودانياً ، أصيلاً" فقد أذل الاحتلال السودانيين وبدل قيمهم الأصيلة وحطم وحدتهم وهويتهم لذا أرادت الجمعية وقيل كل شيء أن تستعيد للسودانيين شعورهم بالعزة التي كسرها الإنجليز الذين "حولوا السودانيين إلى حمير"<sup>1</sup>. ولقد عرفت السودانية الحقيقية على أنها مجموعة من القيم مثل الشجاعة والوفاء والتضحية والانقياد الكامل للدين الإسلامي .

"أبناء وطني الأعزاء يا أبطال الخرطوم وأسود الأبيض وحملة أمدرمان وحراس عطيرة وأسود بورتسودان ... أن أعداءكم يريدون تعذيبكم واستعبادكم وأنتم تريدون الموت في سبيل الاستقلال"<sup>2</sup>. "الجهاد هو سبيلكم للوصول إلى حقوقكم والزود بأنفسكم وأموالكم"<sup>3</sup>.

ظل أعضاء الجمعية أنفسهم متمسكين بهذه المبادئ حتى النهاية . رجال مثل علي عبد اللطيف قضوا بقية أعمارهم في السجن وماتوا في الأسر. كان اعتقالهم نتيجة طبيعية لنشاطهم السياسي وخصوصاً بعد الاعتقالات الأولى في يوليو ١٩٢٤ "السجن هو مصير جميع أعضاء الجمعية"<sup>4</sup> هذا من جهة ، من جهة أخرى كان السجن من

<sup>1</sup> Intelligence's Summary of News, 25.6.24, PRO, FO 141/806/1.

<sup>2</sup> ترجمة لأحد منشورات الجمعية كتب عنوانه باللغة الإنجليزية وأرسل إلي مدير المخابرات بالخرطوم ١٠ / ٩ / ٢٤ PRO, FO 141/805/2.

<sup>3</sup> نفس المصدر

<sup>4</sup> 'The administrative secret members', 17.7.24, PRO, FO 141/806/1.

أهدافهم الأساسية لأهم أرادوا بذلك تقديم المثال للشعب السوداني عملاً صريحاً يمكن مطالعته في الصحف وسماعه في الطرقات.

"بلادكم هي التي ستبقى لكم ولأولادكم .. أما أنتم فعليكم أن تستعيدوا بلادكم وتنفذوا شرف الأمة وإذا متم فسوف تكونوا شهداء الواجب"<sup>1</sup>.

يتضح لنا هنا أن المفردات التي استخدمتها الجمعية شبيهة بمصطلحات "حقوق الأمم" فقد شعروا بأنهم جزء من الصراع العالمي للدول المستعمرة ضد الإمبريالية ولم يكتفوا في برقياتهم بالإشارة للمثال المصري بل ذكروا الهند وصراع غاندي"<sup>2</sup>.

اشتكى الوطنيون أنهم سجنوا ظمناً ودون جريمة سوى الوطنية<sup>3</sup> ولأنهم عبروا عن وفائهم للملك فؤاد "الملك الشرعي والطبيعي للبلاد"<sup>4</sup>. كل الذين اعتقلوا في المظاهرات حوكموا في محاكم سرية وسجنوا مع اللصوص والقتلة... هذا هو شرف الإنجليز الذين زعموا أنهم جاءوا إلى السودان لتعليم شعبه ، فلتشهد أمم أوروبا المتقدمة على المعاملة البريطانية للإنسانية في القرن العشرين"<sup>5</sup>.

هنا كما في سائر الوثائق الأخرى للجمعية يوجه النقد للمهمة الحضارية البريطانية ولم تكن ثمة حضارة في سياساتهم لكنهم نشروا قيماً معاكسة لما زعموه من حضارة.

<sup>1</sup> FO 141/805/2"13/09/24,

<sup>2</sup> ذكرت الهند في العديد من الوثائق انظر General Circular الذي يحمل توقيع نائب رئيس جمعية اللواء الأبيض ، 5.9.24 .

PRO, FO 141/805/2

<sup>3</sup> ترجمة برقية أرسلت إلى رئيس الوزراء أو رئيس البرلمان ورئيس نقابة المحامين ونقابة الصحفيين. تحمل توقيع حسن شريف ، 7.7.24 .

PRO, FO 141/810/3.

<sup>4</sup> ترجمة لمقال صدر في "الأخبار" بعنوان "ماذا يدور في السودان بقلم بابكر الطيب 3/9/24 PRO, FO 141/805/2

<sup>5</sup> ترجمة برقية عبيد حاج الأمين إلى الحاكم العام. PRO, FO 141/810/3. 5.7.24.

وخلافاً لانتهاكات البريطانيين وردة الفعل العنيفة كانت برقيات الجمعية تعبر عن الوسائل السلمية للجمعية "إن هذه المظاهرات أشبه بسيل قوي .. لكنها في خير نظام"<sup>1</sup> استطاع أعضاء الجمعية أن يعزلوا أنفسهم عن الغوغاء الذين استغلوا المظاهرات لإثارة الفوضى<sup>2</sup> وحقبة أن أهداف الجمعية كان لا بد أن تتحقق بوسائل سلمية موجودة في كل كتاباتهم وارتبط عندهم تبنينهم للوسائل السلمية بشرعية مطالبهم . أما حادثة ٢٧ نوفمبر فقد جاءت في النهاية وكانت محاولة للرد على جلاء الجيش المصري بعد مصرع السير لي ستاك ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ . إضافة إلى كل هذا التذمر والاستياء كان أعضاء الجمعية يحتجون على الظلم الاقتصادي الذي تمثل في أولاً : نزع أراضي السودانيين كما حدث في مشروع الجزيرة . ثانياً : الزيادة الكبيرة في الضرائب وارتفاع تكلفة العيش . ثالثاً : احتكار السلع المهمة كالسكر والشاي الذي كان قاسياً على الشعب السوداني<sup>3</sup> .

من المثير للاهتمام اقتفاء أثر الفكر الشيوعي في جمعية اللواء الأبيض<sup>4</sup> . فقد تمكن علي عبد اللطيف من إنشاء أول نقابة عمالية في السودان بعد أن خصصت الجمعية فرعاً للعمال ووضعت لذلك الأساس للنشاط الاشتراكي بالسودان.

<sup>1</sup> ترجمة برقية أرسلت إلى رئيس الوزراء وعضو مجلس النواب ورئيس دار العموم، القاهرة، تحمل توقيع أحمد عمر باخريه، ود مدني 28.6.24, PRO, FO 141/810/3.

<sup>2</sup> To the European Communities in the Sudan, 27.6.1924, Appendix L to Willis' Report , PRO , FO 141/810/3.

<sup>3</sup> ترجمة برقية تحمل توقيع الجمعية البحث عن الحقيقة . 17.7.1924, PRO , FO 141/810/3.

<sup>4</sup> علي عبد اللطيف، الشيوعية على الجمعية أنظر: Jaafar Muhammad Ali Bakheit, *Communist Activities in the Middle East between 1919-1927 with special reference to Egypt and the Sudan*, Khartoum: Institute of African and Asian Studies, University of Khartoum, 1968

خلاصة القول تمثلت أهداف نضال الجمعية في التنمية والتطور وبناء مجتمع متكافئ الفرص ونستطيع أن نستشف هذه العقلية التقدمية أيضاً في العلم الأبيض الذي كان شعاراً للجمعية والذي كتب عليه باللغة العربية "إلى الأمام" فكيف استطاع هؤلاء الأبطال فعل كل ذلك على صغر سنهم وقلة تعليمهم .

ركزت الجمعية كثيراً على الوحدة وذكرت في غالبية مراسلات الجمعية وأول ما تعني الوحدة مع مصر<sup>1</sup>. بالنسبة للجمعية كانت مصر تعني الضمان للسودان ولولا الوجود المصري لاستبعد السودان مثله مثل بقية الدول الإفريقية الزنجية<sup>2</sup>.

أشرنا فيما سبق إلى تأثير ثورة ١٩١٩ المصرية على السودان. إضافة إلى ذلك فقد ساهمت مصر إلى حد ما في الدعم المادي للجمعية في بداية نشاطها إلا أن دعمها كان نادراً وسرعان ما توقف . كانت الجمعية تعتمد في دخلها على اشتراكات الأعضاء الشهرية لتغطية منصرفات الدعاية ودعم أسر المعتقلين<sup>3</sup> .

في سياق آخر ، كسان التأكيد على وحدة السودان ومصر رسالة إلى السودانيين المنقسمين أنفسهم ، فقد كان الإنجليز يثيرون التفرقة بـ "سرقته لتوقيعات المواطنين الضعفاء بمعاونة الخائنين" لتأكيد ولاء السودان لبريطانيا<sup>4</sup> . كان لا بد لأعضاء الجمعية

<sup>1</sup> ترجمة برقية أرسلت إلى طلاب السودان، كلية غردون، تحمل توقيع حسن ياسين Khartoum, 30.6.24, Appendix N to

Willis Report, PRO, FO 141/810/3.

<sup>2</sup> C. A. Willis. The Political Situation, 16.6.24, PRO, FO 407/199

<sup>3</sup> أنظر أيضاً : 'The administrative secret members,' 17.7.24, PRO, FO 141/806/1, and

Confession of Ali Ahmed Saleh, August 1924, PRO, FO/805/2. ذكر على أحمد صالح أن علي عبد

اللطيف كان قد استسلم حينها ٤٠٠ ج في الفترة ما بين مايو إلى يونيو لكنه لم يراها بنفسه

<sup>4</sup> برقية تحمل توقيع أحمد عمر باخرية إلى رئيس البرلمان المصري: Cairo, 31.6.24, PRO, FO 141/806/1

من إمارة اللثام عن سياسة الإنجليز "فرق تسد" ومحاربتها لذلك جسدت مصر المثال الذي يتبع وإذا اتحد السودانيون كما فعل المصريون لهزموا الإنجليز .

من المهم إدراك ما قامت به الجمعية من إعادة تفسير التاريخ المصري والإفادة من التجربة المصرية لإضفاء الشرعية على طلب الجمعية للوصايا المصرية دون البريطانية . لم تكن أحاديث الجمعية عن الوحدة مع مصر مجرد مصادفة حيث نجد أن الجمعية قد اختارت الجانب المضى من التاريخ المصري وتجاهلوا حقيقة أن الحكم التركي المصري قد استعمر السودان لمعظم سنوات القرن التاسع عشر<sup>1</sup> .

أخيراً ، استخدمت الجمعية أساليب جديدة لنشر الدعاية السياسية مثل الإضرابات والمظاهرات وتنوير الصحف العالمية عن طريق البرقيات والمقالات التي كانت ترسل يومياً إلى الخرطوم والقاهرة ولندن أحياناً متبعة في ذلك المثال المصري مع تخويره لملائمة الوضع في السودان.

يتضح مما سبق الجهد الفكري والمادي الذي بذل خلال عملية بناء الأمة. كانت الأمة في رحم الجمعية وبطريقة ما كانت الجمعية انعكاساً لأعضائها وطموحاتهم. كانوا يحملون بأمة متحدة ومتطورة ومتقدمة وحديثة ، أمة تتحدى الاستعمار وتنال احترام المجتمع الدولي وكانوا يعلمون أن أمة كهذه لن تتوحد إلا في حال رجوع السودانيين إلى مبادئهم الأصيلة كالشرف والشجاعة والتضحية والوفاء والالتزام بالدين. في هذا المقام يسهل لنا فهم الخطر الذي مثلته جمعية اللواء الأبيض

<sup>1</sup> علينا ملاحظة طريقة قراة الموالين لبريطانيا للتاريخ، فقد كان المصريون - الأتراك وبعيداً عن كونهم "إخوان" السودانيين أحزاب مكروهين وقد تسبب سوء حكمهم في اندلاع الثورة المهديّة. وما يزال هذا المفهوم منتشرأ حتى اليوم. أما الغزو الإنجليزي فقد كان يسمى بـ "إعادة الاحتلال" وقد لاحظت كاتبة المقال التناقضات اللغوية بين الاحتلالين الإنجليزي والتركي..

ليس فقط للحكومة البريطانية ولكن حتى للمتحالفين معها، ولما أدركت الحكومة خطر الجمعية كان رد فعلها سريعاً وحاسماً وسعت حتى لإزالة اسم علي عبد اللطيف من الذاكرة السودانية .

٤- استجابة الإدارة البريطانية وأعيان السودان

ذكر مدير الخرطوم كوربين في تناوله لأحداث ١٩٢٤ :

"هناك طريقة واحدة للتعامل مع شعب بعقلية شعب هذه البلاد ، فإذا أثار أفراده المشاكل فأضرب وأضرب وواصل في الضرب"<sup>١</sup> .

وهذا ما حدث فعلاً ففي الفترة من يوليو إلى أغسطس ١٩٢٤ كانت جميع العناصر الأساسية لجمعية اللواء الأبيض قد اعتقلت أو هربت إلى مصر . بيد أن الإزالة الجسدية لنشطاء الجمعية من الساحة السياسية لم تكن كافية ، كان على الحكومة أن تتجنب تحويلهم إلى رموز، الشيء الذي سعى إليه الوطنيون .

كان أمام الحكومة حلان للقضاء على شعبية اللواء الأبيض أولاً خلق الإنجليز صورة الجمعية المكونة بواسطة أشخاص من طبقات وسلالات وضيعة ثانياً سعى الإنجليز إلى إقامة تحالفات مع القوى ذات التأثير على الشعب مستغلة مكاتهم الدينية والتاريخية . رغم أن معظم أعضاء الجمعية كانوا من متعلمي الطبقة الوسطى إلا أنهم وصِفوا في المصادر البريطانية على أنهم مجموعة صغيرة من "أنصاف المتعلمين"<sup>١</sup> وأهم "سود

<sup>١</sup> PRO, FO 141/805/2 Corbyn to Director of Intelligence, Khartoum. يبدو أن هناك خطأ في تاريخ الوثيقة (١٩٢٤/٦/١٦) فقد تحدثت عن أحداث وقعت في أغسطس ١٩٢٤.

مغرورين" أو موظفين تم تسريحهم بسبب فسادهم "ثبوت شنوذهم"٢ .. وأهم "دهماء  
قادتها ضعاف الشخصيات وتبعها الأولاد العاقون"٣

اعتقد الإنجليز أن دافع ثورة ١٩٢٤ وقيادتها وتعليماتها كانت مصرية بالكامل٤ .  
ابتداء بالتمويل وتقنية تنظيم المظاهرات وقد كانت ظواهر غير معروفة للمجتمع  
السوداني من قبل٥ . وظن الإنجليز أن صناع الدعاية المصرية أرادوا أن يشكلوا الرأي  
العام السوداني بطريقة تدعم السودان - المصري . ولما كان من المستحيل على المصريين  
إيجاد حلفاء في الطبقة العليا قاموا باستغلال تدمير واستياء الطبقات الدنيا بالتالي كان  
المصريون يتعاطون مع العناصر المهمشة في المجتمع وبعدهم بمراكز ريادية في حال تحرير  
السودان.

سعت المصادر الرسمية أيضاً إلى عدم الإشارة إلى مدى انتشار نشاط الجمعية وإن كانت  
المخابرات نفسها لا تعلم يقيناً مدى هذا الانتشار.

بلغت أسماء الناشطين السياسيين التي وردت في التقارير البريطانية ممن وقعوا البرقيات أو  
قاموا بالدعاية أو اعتقلوا حوالي ٦٠٠ اسم وهذا بالطبع لا يشمل أولئك الذين لم

---

1 Telegram from Khartoum to High Commissioner for Egypt, 4.7.24, PRO, FO 141/806/1

2 See for ex. Daily Bulletin, July 22 1924, PRO, FO 141/810/3; this was a common accusation.

3 Baily's Report, Appendix 7 to Ewart Report, PRO, FO 407/201

4 Ewart's Report, Khartoum, April 21, 1925, PRO, FO 407/201

5 Willis' Report, 20/7/1924, PRO, FO 141/810/3

تكشفهم المخبرات. ذكر في إحدى الوثائق أن عدد أعضاء الجمعية بلغ ٢٤ ألف إلا أن هذا الرقم قد يكون مبالغاً فيه<sup>1</sup>. خلاصة القول، اختلقت الإدارة البريطانية تصنفاً وصفت به أعضاء اللواء الأبيض وهو أهم من سلالات وضيفة وعاطلين عن العمل وغير قادرين على التأقلم ومتذبذبين، هذه هي صورة الجمعية التي أرادوا أن يورثوها لسودان المستقبل.

كما أسلفنا في الفقرة الأولى شعر الإنجليز ومنذ الحرب الأولى بضرورة إحكام قبضتهم على السودانيين وتبني القوى التقليدية واستشارتها قبل اتخاذ القرارات وهي ذات القوى التي حدت الإدارة البريطانية من تأثيرها قبل الحرب. لذلك تحتم على الإنجليز بلورة وتعزيز مكانتهم السياسية والمالية لدرجة أنه يمكننا القول أن سياسة ما بعد الحرب هي التي عززت نفوذهم الاجتماعي وساهمت في تشكيل قدر كبير من تاريخ السودان اللاحق. لعب هذا التحالف دوراً كبيراً في ثورة ١٩٢٤ فمثلاً كان الأنصار "أتباع المهدي" وليس البوليس الإنجليزي من يفرقون المتظاهرين<sup>2</sup>. بالنسبة للإنجليز استمدت هذه الأسر تفوقها الاجتماعي من أنسابها ومكانتها الدينية. كانت السلالة والنسب تعني للإنجليز "الترتيب الطبيعي للسلم الاجتماعي" الذي تقوم عليه الحدود والفواصل داخل المجتمع. وينطبق هذا على أي مجموعة ذات نفوذ سياسي في الدول التقليدية وهناك اتجاه عام لاعتبار المقام الاجتماعي أمر جوهري وطبيعي وقدم قدم الإسلام نفسه.

<sup>1</sup> رسالة من مجهول معنونة إلى مدير المخبرات و كل الانجليز يوم ١٩٢٤/٨/٢٧ حملت التوقيع، جميع السودانيين بالغرب: PRO, FO 141/805/2  
<sup>2</sup> الروايات الشفاهية لثوار 1924. *op. cit*, p. 41.



غير أن المصادر الداخلية للمخابرات تبين أن ولاء الأعيان للإنجليز لم يجد شعبية. وعتب عليهم الكثير من السودانيين إفراطهم في التقرب إلى الإنجليز وشعروا أن تحالفهم مع الحكومة هو عبارة عن خيانة ومنافي لمبادئ الإسلام . انضمت العديد من الأسر المرموقة إلى هذا الاتجاه . ففي اجتماع الأعيان مثلاً في منزل السيد عبد الرحمن المهدي لمناقشة أوضاع السودان ودور الوصايا الإنجليزية غادر بعضهم فجأة وكان بعضهم قد رفض الاشتراك أصلاً .

علينا أن ندرك أن الأعيان لم يكونوا بكل بساطة رهن الإنجليز . فقد كانوا مدركين لأهمية تحالفهم مع الحكومة وعملوا على أن تزداد حاجة الحكومة لهم أكثر فأكثر حتى يحكموا قبضتهم على الساحة السياسية ونتيجة لهذا أصبح الإنجليز معتمدين كلياً على حلفهم مع الأعيان .

٦- إرث مبتور

قياساً إلى التاريخ السوداني المعاصر المعروف عنه الطائفية قدمت جمعية اللواء الأبيض النقيض التاريخي بفضل قائدها الأسود وقاعدتها الاجتماعية الضخمة التي تجاوزت الحدود الجغرافية والدينية والعرقية. لكن المشكلة التي ما تزال قائمة هي قراءة الحركة بعيون الحاضر . نستطيع من خلال ثورة ١٩٢٤ التقاط صورة لمجتمع وجدت فيه الفوارق الطبقيّة والعرقية لكنها لم تكن أسباباً لخلق التمييز العنصري. كان العرق

---

<sup>1</sup> Memorandum, Intelligence Department, Khartoum, 11.6.24, PRO, FO 407/199

جداراً هشاً يسقط الضوء على جانب واحد فقط من الوضع الاجتماعي للفرد وكانت الإفادة من المزايا الاقتصادية والتعليمية الجديدة هي التي تحدد إنجاز ومسار الأفراد . قدمت جمعية اللواء الأبيض المثال للأجيال القادمة من الوطنيين وابتدأت فكرة السودان – الأمة بالمعنى الحديث للكلمة إلا أن من خلفهم من مثقفي ومتعلمي الثلاثينات مثلاً كانوا قد فقدوا الدافع للتخاطب مع القوى الاجتماعية المختلفة وظلوا في صفويتهم وصار تحالف السويديين القوة المحركة للسودانيين .

أدت أحداث ١٩٢٤ إلى إعادة النظر في السياسات الاستعمارية بعد أن أضرت الأحداث بما كما حدث لسياسي "الفردية" و"التنبيت القبلي" للمثقفين الذين تسببوا في أحداث ١٩٢٤ وصار لا بد من مواجهة الجمعية إن لم نقل إبادتها. وبدأ أن سياسة الحكم اللا مركزي هي الحل وتم تقليص فرص التعليم وتبني سياسة الجنوب ونظام المناطق المقفولة ونزع السلطة والمسؤولية من العناصر المنتبة في المدن وعدم الثقة في المنتبين قبلياً غير العرب، وبهذا أصبح الحكم اللا مركزي هو المسؤول عن تعطيل السودان خمسة عشر عاماً على الأقل وتقسيمه إلى شمال وجنوب وما يصحبه من تأثير سلبي في المدى الطويل .